

المخطوطات الألفية فى مكتبة الأزهر

لعلنا لا نبالغ فى تقدير تاريخ المكتبة الأزهرية لو قلنا إن تاريخها هو تاريخ الجامع الأزهر نفسه ، ومن ثم فإنه يصعب الحديث عن هذه المكتبة بمعزل من الحديث عن الأزهر ذاته والكلام عن تاريخ الأزهر جامعاً وجامعة لا يمكن اختصاره فى ورقة كهذه ، لأنه كلام عن مؤسسة علمية عريقة ضاربة جذورها فى ضمير الأزمان والآباد ، قديماً وحديثاً وحتى يومنا هذا ، ومن ثم فإن حديثي عن الأزهر بماآذنه وقبابه ومكتبته ، وكمرجعية كبرى للإسلام والمسلمين ، ماضياً وحاضراً ، لا بد له من الوقوع فى عيب الابتسار والاختصار المخل ، ولذا أبدى اعتذاري - بدياً - عن هذا العيب الذى فرض نفسه فرضاً لاعتبارات تتجاوز حدود دائرة الإمكان .. وأول ما أحرص على ذكره هو تقرير الحقيقة التى تقول : إن الأزهر رغم أنه بدأ جامعاً ومسجداً إلا أنه روعي فيه منذ أعوامه الأولى أن يكون معهداً للقراءة والدرس إلى جوار كونه مسجداً جامعاً للصلاة والعبادة ، وبحيث شكل العلم والعبادة وجهي العملة الواحدة منذ البداية فى إنشاء هذا المعهد قبل أكثر من ألف عام وحتى يومنا هذا .

ثم يحدثنا التاريخ أن الجامع الأزهر قد اكتمل بناؤه واحتفل بافتتاحه بأداء صلاة الجمعة فى اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) ، وأن أول درس عقد فى صحن هذا المسجد كان فى شهر صفر من سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) .

ومن حسن الحظ أن حدّد لنا التاريخ - وعلى وجه الدقة - أول حلقة علمية عقدت في الجامعة الأزهرية ، حيث يذكر المقرئزي أن أول أستاذ جلس للتدريس في الأزهر هو قاضي القضاة أبو الحسن على بن النعمان القيرواني (ت ٣٧١ هـ) وأول كتاب درّسه هذا الأستاذ هو كتاب الاختصار في فقه الشيعة أو فقه آل البيت في بعض التسميات ، وهو من مؤلفات أبيه : أبي حنيفة النعمان (ت ٣٦٠ هـ) صاحب الكتاب المشهور المسمى " دعائم الإسلام " بل إن المؤرخين لم ينسوا أن يثبتوا أسماء الحاضرين في هذا الدرس ، وبذلك حفظوا لنا وصفاً دقيقاً نادراً لأول حلقة علمية من حلقات الدروس في الأزهر من حيث الأستاذ والطلاب والكتاب (١) والتي مضي عليها أكثر من ألف عام من عمر الزمان .

وبعد أربع سنوات جلس الوزير يعقوب بن كلس في رمضان سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠م) ليدرّس كتابه " الرسالة الوزيرية " في الفقه الشيعي على المذهب الإسماعيلي وكان من بين التلاميذ الذين استمعوا لهذا الوزير - فيما يذكر ابن خلكان - الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر والدولة . ثم توالى عقد حلقات القراءة والدرس في الجامع الأزهر حيث عين الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) طوائف من الفقهاء ليعقدوا مجالسهم العلمية بالأزهر في كل يوم جمعة فيما بين صلاتي الجمعة والعصر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقهياً . وقد رتب لهم الخليفة

(١) الخطط - المقرئزي - ج ٤ ص ١٥٦ نقلاً عن محمد عبد الله عنان - تاريخ الجامع الأزهر - مصر -

رواتب وجرايات مجزية وأنشأ لهم داراً للسكن بجوار الأزهر ، كما أجرى عليهم الوزير ابن كلس أرزاقاً كثيرة من أمواله الخاصة .

وهنا نجد أنفسنا " أمام حدث جامعي حقيقي . فقد كان أولئك الفقهاء الذين رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله ، أول فوج من الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر ، وأجرت عليهم الدولة أرزاقاً ثابتة ، وباشروا مهمتهم العلمية تحت إشراف الدولة بطريقة منظمة مستقرة ؛ وبذلك يكتسب الأزهر لأول مرة صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة ، ويبدأ حياته الجامعية الحافلة المديدة " (١) .

ومنذ يومئذ اتخذ الأزهر مكانته ككعبة للثقافة الدينية والدينية ، وظل يرفد هذه الثقافة بأهم مكوناتها ومقوماتها سواء في مصر أو في العالم الإسلامي ، وجدير بالاعتبار هنا أن حلقات العلم والتثقيف في الأزهر لم تكن قاصرة على الرجال بل كانت تعقد فيه إلى جانب الحلقات الدراسية مجالس علمية للنساء سميت في ذلك الوقت مجالس الحكمة .

وفيما يتعلق بالدراسة في هذا المعهد العتيق فإنها كانت تتم في إطار ما يسمى بالحلقات الدراسية المختلفة في صحن المسجد الأزهر ، وفيها يجلس الأستاذ مسنداً ظهره إلى أحد أعمدة المسجد ، ويتحلق حوله الطلاب والمستمعون يقرأون عليه الفنون المختلفة ويستمعون إلى شرحه ثم يناقشونه أو يستوضحونه فيما قرأوه وفيما التبس عليهم .

(١) مصدر سابق - ص ٤٤ .

وقد تميز الأزهر بهذا النظام التدريسي منذ نشأته ، واستمر هكذا حتى سنة ١٩١١م حيث صدر القانون الذى نظم الدراسة فى الأزهر على أسس جديدة ، ونص على إنشاء مجلس أعلى للأزهر ، وهيئة لكبار العلماء وإنشاء معاهد دينية فى بعض عواصم المديرية فى ذلك الوقت وإضافة مواد جديدة للدراسة مثل : التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادئ الطبيعة والكيمياء .

أما إنشاء الجامعة بكتلياتها الثلاث : الشريعة وأصول الدين واللغة العربية فقد تم بموجب قانون صدر فى نوفمبر سنة ١٩٣٠م .
وربما كان من المهم أن نبين أن من أهم المميزات التى انفرد بها الأزهر قديماً وحديثاً فى نظام تدريس العلم جامعاً وجامعة أمرين :

الأول:

أنه يعكس الوجه الحقيقي للإسلام ويعبر عن حقيقة التراث الإسلامى وجوهره فى بُعديه العقلي والنقلي وهو بذلك يمثل وسطية الإسلام التى هى أخص خصائص هذا الدين القيم ، كما يمثل الاعتدال فى فهم الكتاب والسنة وما نشأ حولهما من إبداعات علمية وفكرية ، ثم هو يرسخ فى ذهنية الطالب الأزهرى وشعوره منذ نعومة أظفاره فى قاعات الدرس مبدأ الحوار وشرعية الاختلاف ، وقد تمثل كل ذلك فى النظام الذى يفرض على الطالب الصغير المبتدئ أن يختار منذ الطفولة الباكرة مذهباً من بين

المذاهب الفقهية المتعددة وبحيث تشكل المذاهب المختلفة من وجهات النظر ، فى أذهان الطلاب قاعدة ثابتة هي : أن هناك أكثر من مذهب وأكثر من رأي وأن كل هذه الآراء صحيحة وأنه لا يوجد متحدث رسمي واحد يحتكر الحديث باسم الإسلام .

هذا المنهج المفتوح نجح فى أن يجنب الطلاب الانغلاق أو التخندق فى مذهب واحد بعينه يراه صحيحاً ويرى غيره باطلاً .. وما يقال عن المذاهب الفقهية يقال عن غيرها من المذاهب العقدية المتعددة وفى مقدمتها السنة والشيعية بفرقها المعتدلة ، والأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والسلف ، أو لنقل : الذوقيين والنصبيين والعقليين ، فكل هؤلاء فى المنهج التعليمي الأزهري معبرون عن الإسلام وأصحاب حقوق وإسهامات كبرى فى صياغة التراث الإسلامي .

ولا يقتصر المنهج الأزهري على ترسيخ مبدأ الحوار وشرعية الاختلاف والاعتراف بالآخر فى دائرة المذاهب الفقهية والعقدية عند المسلمين ؛ بل يعمل على ترسيخ المبدأ ذاته فى علاقة الإسلام بالأديان الأخرى وفى مقدمتها الأديان السماوية وبطبيعة الحال لا يتسع الوقت لعرض ما يتميز به المنهج الأزهري فى هذا المجال .

ويكفى أن أشير إلى التقارير الرسمية التى تعجب من أن قوائم قادة الجماعات المتطرفة لم يكن من بينها أزهري أو متخرج من جامعة الأزهر وإن كنت لا أرى سبباً لهذه الدهشة لأن منهج التعليم هو من وراء

تكوين العقلية الأزهرية تكويناً قوامه الاعتدال والوسطية وحوار الآخر
لا نفيه أو استبعاده .

الأمر الثاني:

انفراد الأزهر بنشر العلم والثقافة الإسلامية حسبة وخدمة للإسلام
ونشراً للثقافة الإسلامية فى ربوع الدنيا كلها . كان ذلك فى الزمن الماضى
حيث رتبت أرزاق شهرية وجرايات يومية من جانب القائمين على الأزهر
فى مصر وبقي ذلك حتى الآن . ولحضراتكم أن تتصوروا حجم الخدمات
التعليمية المجانية التى يقدمها الأزهر لآلاف الطلاب والطالبات الوافدين
والوافدات عليه من مختلف الدول الإسلامية ، وذلك من خلال الإحصائية
الآتية :

يدرس فى جامعة الأزهر ما يقرب من خمسة عشر ألف طالب وطالبة
من المغتربين والوافدين من أكثر من مائة دولة عربية وإسلامية من
مختلف دول العالم ، عدد الذين يدرسون منهم بمصروفات (١٢٥٤) طالب
فقط والباقي يدرسون مجاناً وبدون مصروفات . لأن نظام جامعة الأزهر
- بالنسبة للوافدين - يقضى بتحصيل رسوم دراسية ممن يدرسون فى
الكليات العملية كالهندسة والطب وما إليهما ، أما الذين يلتحقون
بالدراسات الإسلامية سواء فى مجال الشريعة أو أصول الدين أو اللغة
أو الآداب أو التجارة أو التربية فإنهم يدرسون مجاناً سواء فى المرحلة
الجامعية الأولى أو فى مرحلة الدراسات العليا . ويستفيد من هذه

المجانية ما يقرب من ١٤ر٠٠٠ طالباً بما فيهم الوافدون من دول عربية ثرية كدول الخليج العربي ، بل ومن دول متقدمة اقتصادياً بالقياس إلى مصر مثل : ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة وتايلاند ، فضلاً عن الوافدين من أوروبا وأستراليا والأمريكتين .

هذا بالإضافة إلى (١٥٠٠) طالب وطالبة يدرسون مجاناً في مرحلتي الإعدادي والثانوي ويوفر لهم الأزهر مدينة خاصة تسمى " مدينة البعوث الإسلامية " ، تقدم الإقامة والغذاء والأنشطة المختلفة مجاناً وتجري عليهم منحة شهرية بواقع (٩٠) جنيهاً إضافة إلى (٦٢٠) وأفداً يقيمون خارج المدينة ويتقاضى كل منهم (١٢٠) جنيهاً كمنحة شهرية .

نعم لقد أنفرد الأزهر بهذا المنهج التعليمي الحر والمنفتح وبهذا العطاء اللامحدود من أجل نشر العلم ورعاية طلابه ، ولا تُعرف هذه الميزة لجامعة من جامعات الدنيا غير الأزهر وجامعته ، وإلا فأين هذه الجامعة التي تستقبل هذا العدد من الطلاب المغتربين وتنفق عليهم دون مقابل ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ محمد عبد الله عنان منذ أكثر من نصف قرن في كتابه " تاريخ الجامع الأزهر " الذي نشر عام ١٩٤٢م .

المكتبة :

وإذا كان عمر مكتبة الأزهر – كما قلنا – هو عمر الجامع نفسه ، فإن الحديث عنها : نشأة وتطوراً عبر أكثر من ألف عام ، أمر لا يمكن أن تستوعبه هذه الورقة ، ومن ثم فإن الذي يعيننا هنا هو أن نقول في خطوط عريضة :

إن هذه المكتبة الحالية الموجودة الآن ليست هي المكتبة القديمة التي يتحدث عنها المؤرخون ، وأن المكتبة القديمة أنشئت بعد إنشاء الجامع الأزهر بعشرين عاماً ، وعليه فإن تاريخ مكتبة الأزهر يعود إلى عام ٣٨١ هـ الموافق ٩٩٢ م (١) . وقد تناول المؤرخون تطور هذه المكتبة عبر العصور استناداً إلى الشذرات والمقتطفات المتناثرة التي ترد في بعض كتب الأخبار والأنباء والمواظع والاعتبار كالمقريزي وابن الميسر وابن خلكان وابن إياس وغيرهم .

وربما كانت أقدم إشارة تتعلق بمكتبة الأزهر ما أورده ابن الميسر من أن أمانة المكتبة كانت تعد من الوظائف الكبرى وأنه في سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) أسندت وظيفة أمانة المكتبة إلى أبي الفخر صالح إضافة إلى وظيفته كخطيب للجمعة في الجامع الأزهر ، وأيضاً ما يذكره بعض المؤرخين من أن مكتبة القصر الفاطمي كانت تحتوي على " أكثر من مائتي ألف مجلد في سائر العلوم والفنون في الفقه والحديث والتاريخ والأدب وغيرها ، نقل نصفها إلى الجامع الأزهر بأمر الحاكم بالله " (٢) ، ويؤخذ من هذه القيسات التاريخية أمران :

(١) انظر خالد النادي الحلواني : مكتبة الأزهر الشريف : رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة حلوان ٢٠٠٣ م - ص ٥ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، الدار العربية ١٩٩٣ ، ط ٢ - ص ٦٢ .

أولاً : أن عمر مكتبة الأزهر هو ١٠١٢ عاماً تقريباً .

ثانياً : أن هذه المكتبة قد زودت بمائة ألف كتاب فى القرن الرابع الهجري

.. ولنا بعد ذلك أن نتصور عظمة وخطر مكتبة بهذا الحجم وهذا التاريخ .

وفيما يتعلق بوضع المكتبة فى العصر الحاضر ، فإن من المهم أن نشير إلى أن التاريخ الحديث لهذه المكتبة يرتبط بدعوة الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية إلى إنشاء مكتبة تجمع شتات الكتب المتناثرة آنذاك فى المساجد والأروقة والمدارس . والتي كانت تتبع مكتبة الأزهر .. وقد تقدم الشيخ محمد عبده بهذا المشروع إلى الشيخ " حسونه النواوي " شيخ الأزهر . والذى أصدر قراراً بإحصاء الكتب وتجميعها وحفظها فى مبنى يخصص لهذا الغرض . وتم تنفيذ الفكرة فى أول محرم من سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧م) وتم نقل كتب الأروقة إلى الأماكن التى خصصت لها .. ولم تقتصر دعوة الإمام محمد عبده على تجميع الكتب فى الأماكن المخصصة ، بل دعا إلى المشاركة فى تزويدها بالتبرع بالمكتبات المتوارثة إلى مكتبة الأزهر ، وكان أول المستجيبين لهذه الدعوة شيخ الأزهر الشيخ حسونه النواوي الذى تبرع بمكتبته للأزهر ، وأيضاً ورثة المرحوم سليمان باشا أباطة الذين أهدوا مكتبة والدهم إلى مكتبة الأزهر .

أما المبنى الجديد للمكتبة فإن قرار إنشائه يعود إلى الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى تولى مشيخة الأزهر عام ١٩٢٨ ، لكنه لم ينفذ فى ذلك الوقت ، وظل يتعثر حتى عهد الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الذى أحيا قرار المشروع من جديد

ودفع به إلى مرحلة الاتفاق على إنشاء المبنى ، غير أن تنفيذ المبنى لم يتم إلا في عهد الشيخ جاد الحق رحمه الله الذي تولى مشيخة الأزهر في ١٧/٣/١٩٨٢م حيث وضع المشروع موضع التنفيذ الفعلي وأنشئ المبنى الحالي والمكون من أربعة عشر طابقاً في حديقة الخالدين بالدراسة بالقاهرة .

وعندما تولى الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي مشيخة الأزهر تابع تحديث المكتبة بالتنسيق مع مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء ؛ وذلك بإنشاء قواعد بيانات ببليوجرافية لجميع مقتنيات المكتبة تيسر استدعاء المعلومات المطلوبة باستخدام أحدث نظم التصنيف العالمية والفهرسة واستخدام برنامج المكتبات الآلية .. لكن هذا التحديث ما زال في مراحله الأولى ، الأمر الذي يجعل اكتشاف المخطوطات الألفية في هذه المكتبة والتعرف عليها أمراً صعباً ، وذلك للأسباب الفنية التالية :

- ١ - أن الفهارس المنشورة للمكتبة في ثمانية مجلدات كبار ، لا تسعفنا إلا بكتاب واحد هو غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام .
- ٢ - أن المكتبات الخاصة بأروقة المغاربة والشوام والأتراك والتي تحتوي على آلاف المخطوطات ، كانت تحت إشراف مشايخ هذه الأروقة ، ولم يُنقل الإشراف عليها لإدارة المكتبة الأزهرية العامة

إلا بعد صدور فهرس المكتبة ، وآخر هذه الفهارس طبع سنة ١٩٧٨م وعليه فلم تدخل محتويات تلك المكتبات فى هذه الفهارس ، ويبلغ العدد التقريبي لتلك المخطوطات خمسة عشر ألف مخطوط فى مختلف فروع العلوم الإسلامية .

٣- أن هناك آلاف من المخطوطات كانت موزعة فى مكتبات المعاهد الأزهرية خارج القاهرة ، ولم يتم تجميعها فى المكتبة الأزهرية بالقاهرة إلا فى العام الماضى (٢٠٠٣م) ، وبالتالي لم تفهرس فهرسة آلية فى الحاسب ، ولا حتى فهرسة ورقية فنية .

٤- أن المؤلفات المنشورة فى بيان أقدم المخطوطات العربية حتى القرن الرابع الهجرى فى مكتبات العالم المفهرسة ، لا تذكر عدداً كثيراً ، فقد ألف الأستاذ كوركيس عواد (عضو المجمع العلمى العراقى) كتاباً بعنوان " أقدم المخطوطات العربية فى مكتبات العالم " ، وقد بلغ كل ما ذكره فى كتابه (٧١٧) مخطوطة مفرقة فى مكتبات العالم بما فيها المكتبة الأزهرية . وقد ذكر ضمن مخطوطات المكتبة الأزهرية مصحفاً شريفاً توجد نسخته فى مكتبة رواق المغاربة ، وتقع فى ألف صفحة ومكتوبة على رق غزال بخط مغربى ، وقدّر تاريخ كتابته من سنة ٢٥ إلى سنة ٣٥ هـ ، ولما كانت تلك المكتبة مما لم تفهرس كما قدمت ، فإنه لم يمكن الوصول إلى هذا المصحف فى محتوياتها التى تقدر بالآلاف .

٥ - وهناك مصحف آخر موجود بالمكتبة الأزهرية برقم (٩) مصاحف ، وعدد أوراقه (٥٣٨) ورقة ، ولم يُذكر تاريخ نسخه بالفهرس ، ولكن عند إطلاعي عليه وجدته مُكَملاً من آخره من سورة النجم إلى آخر القرآن ، ومن أوله كذلك حوالي ١٥ ورقة تنتهي في أواخر آية (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ) وذلك بخط متأخر أما باقي المصحف وهو أكثره فمكتوب بخط كوفي قديم لا يزيد علي القرن الثالث في أغلب الظن ، بحسب مقارنته بخطوط مماثلة في هذا القرن الثالث .

ويعد وجود هذا المصحف دليلاً على أن الفهارس المنشورة للمكتبة الأزهرية حالياً ، لم تركز عنايتها بتحديد تواريخ المخطوطات المفهرسة التي لم يذكر تاريخ نسخها .

(أ.د/ أحمد محمد أحمد الطيب)

رئيس جامعة الأزهر
